

كيف تعلم الأخلاق

من وقت لآخر تعلقو صيحة الكتاب ناعية إلينا أخلاق الشبان أو محذرة من شر انحطاطها وترزعزعا . ثم يتجه النقد نحو المدارس لأنها تحمل تعليم الأخلاق . ولكن هؤلاء الصائحين ينسون أن الأمة لا يمكنها أن تحصل من الفرد على أكثر مما تستحق من الأخلاق . إذ الفرد يكتسب هذه الأخلاق من بيئتها الاجتماعية ، ويصطنع مقاييسها في تمييز الفضائل والذائل كما ينسون أن المدرسة تعلم ولا تربي . وأن مكان التربية هو البيت . والأخلاق لا يمكن أن تكون إلا ثمرة التربية في البيت أولا والمجتمع ثانيا .

ونحتاج لكي نفهم هذا الموضوع أن نرجع إلى قليل من علم طبائع النفوس ، فإن الحيوان يسلك سلوكا قائما على الغرائز وحدها . ونحن نسلك سلوكا قائما على الميول . والغرائز محدودة قد جعلها مكدوجال السيكلوجي الانجليزى المعروف أربع عشرة . أما الميول فلا حصر لها لأنها تتركب من الغرائز . وللإيضاح نقول إن في الحيوان غريزة جنسية . وهى غريزة طارئة تقوم على اشتهاء الجنس الآخر لا أكثر . أما الانسان — ونعنى هنا الانسان المتمدن — فله ميل جنسى مؤلف من جملة غرائز ليست الغريزة الجنسية إلا واحدة منها . فالحيوان يطلب الأنثى . ولكن الانسان بما تكوّن فيه من ميل جنسى يطلب جملة أشياء الى جنب الأنوثة . فان الإعجاب بالمرأة عند الرجل المتمدن لا يقتصر على أنها أنثى بل هو يتجاوز هذا الاعتبار الى أنها تمتاز بذوق خاص فى هندامها وإلى مكان أسرتها ودرجة ثقافتها وعاداتها ولطيفة حديثها وديانتها . وكل هذه الاعتبارات تندمج فى ما نسميه ” ميلا “ جنسيا . وكذلك الشأن فى الطعام . فان الحيوان يعتمد على غريزة الجوع فيطلب ما يشبعه من أى طعام . ولكن الانسان المتمدن ينتقد المسائدة والألوان . وذلك لأن الميول تتألف من الوسط الاجتماعى . فنحن لا نعيش فى المجتمع بغرائزنا وإنما بميولنا . ولو كان أحدا يعيش منفردا فى صحراء أو غابة لقمع بغرائزه . وعندئذ لا نجد معنى أو مغزى للأخلاق هنا . لأن الأخلاق هى نتيجة

المعيشة الاجتماعية . ولا معنى بتاتا للصدق أو الكذب أو الغدر أو الوفاء أو الشرف أو الأمانة إذا كان الانسان منفردا . وإنما هو يتحل بهذه الفضائل أو يتجنب هذه الرذائل لأن المجتمع الذى يعيش فيه قد غرسها فيه . وجميع هذه الفضائل هي ميول كل ميل منها مؤلف من غرائز . والميل هو فى النهاية " عادة كامنة " أى أنه يحتاج الى الممارسة والتكرار . وهو لا يعلم ولا يلحن .

والأخلاق تختلف بين أمة وأخرى ، لأن المجتمع يختلف . بل هي تختلف بين بيئة وأخرى فى الأمة نفسها كما نرى مثلا فى هذا الاختلاف القائم بين الريفيين فى مديرية قنسا عن فكرة العرض ، وبين الريفيين فى بعض الأقاليم بالوجه البحرى . كما نرى الاختلاف عن هذه الفكرة أيضا بين المصريين والأمريكيين . وذلك الذى يكسبنا شخصية ويميز بين واحد وآخر هو الميول وليست الغرائز ، فأتنا جميعا سواء من حيث الغرائز ولكنا نختلف من حيث الميول .

ولا نستطيع أن نقول إن للحىوان شخصية ، إذ هو يعيش على جهاز الغرائز ويتقلب بتقلبها لأن الغريزة وحدة منفصلة يستجيب لها الجسم بنعم أو لا . ولكن الميل الذى يؤلف من جملة الغرائز لا يستجيب له الجسم بمثل هذا الجسم . فالرجل الذى تكونت أخلاقه وتألفت شخصيته تضطره ميوله الى التريث والتأمل والتدبر . لأن فى نفسه جملة غرائز مختلفة بل متضاربة . فهو يقدر ويدبر . ولكن ذلك الذى لم تتكون أخلاقه ولم يتم له بناء شخصيته يسارع الى الرأى ، ويبادر الى العمل ، لأن ميوله قليلة وغرائزه هي التى توجهه .

ومهمة الأخلاق هي مهمة اجتماعية تكاد تناقض الطبيعة ، لأننا نطالب الفرد بالأ يعتمد على غرائزه كالحىوان أو كالانسان المنفرد فى صحراء أو غابة ، بل نحن نفرس فيه ميولا تجعله أبطأ فى الحكم يوازن بين غرائزه قبل أن يقرر السلوك الذى يتخذ . فالغريزة تقول للطفل : إذا رأيت طعاما وكنت جائعا فكل لا تبال . ولكن الأخلاق تقول : إذا رأيت طعاما وكنت جائعا فلا تأكل إلا بعد أن تعرف أنه طعامك ، وبعد أن تتق بأنه طعام حسن نظيف تتق بالذى طهاه . وأياك أن تلوث ملابسك وأنت تأكل . ثم اغسل يديك بعد الطعام الخ : ففى الحال الأولى نجد غريزة . وفى الحال الثانية نجد ميولا اجتماعية .

فاذا شئنا أن نعلم الأخلاق الفاضلة لأبنائنا فيجب قبل كل شئ أن نوجد لهم فى المجتمع الفاضل . والمدرسة إنما تعلم أبناءنا مواد ثقافية مثل الجغرافيا والتاريخ والكيمياء ولا علاقة لهذه الاشياء بالأخلاق . لأن الأخلاق هي المعاملة والسلوك والاتجاه الاجتماعى . وكل هذا يكتسب من الأسرة والمجتمع . بل لقد قال أحد المربين إن الصبي يتعلم فى الشارع بين بيته ومدرسته من الأخلاق أكثر مما يتعلم فى المدرسة نفسها .

وربما لم يكن مبالغا في هذا القول . فإن الصبي يرى المشاجرة تنشب أمامه في الشارع وهي أسلوب من السلوك يتأثر منه ويرى فيه الظاهر والمنزوم ، وهو يشترى الحلوى ويحصد من التجار ملاطفة أو جفوة أو غشا أو نزاهة ، فيتأثر كذلك ، وهو يلعب مع الصبيان فيعجب بجماعة هذا ويحتقر جبانة ذاك ، وهذه هي البيئة التي يتعلم منها بعض أخلاقه .

فاذا شئنا أن نعلم أولادنا الأخلاق فيجب قبل كل شيء أن نذكر أن البيت هو البيئة الأولى التي يكتسب منها أسلوبه في السلوك . فاذا لم تكن في هذا البيت أخلاق فاضلة فتق أن الطفل قد فقد ثلاثة أرباع المعركة الأخلاقية . وأن استرداده لما فقد ، قد يكون في حكم المستحيل بعد ذلك . لأن تغيير هذه الأخلاق شاق جدا . والطفل في بيئته العائلية يأخذ الأخلاق عن والديه وأخواته والخدم والزائرين . وحظ الأم هنا يساوي حظ جميع الآخرين إن لم يزد عليهم . وهو يتأثر بكل ما يحدث في البيت ، لأن نفسه لا تزال بكرا تقبل النقش الذي لا ينحى في المستقبل . وهو يتعلم الأخلاق هنا بأنجع الطرق لتعليمها وهو القدوة ، وهو يقتدى بأمة وأبيه وإخوته . وأحيانا نجد هذه القدوة واضحة في إمالة اليد وحركة الوجه ونغمة الصوت . فيجب أن ندرك من هذه الدقة في أثر القدوة أن الصبي يتخلق بالأخلاق الفاضلة في هذا البيت .

والبيت هو المجتمع الصغير . ثم هناك المجتمع الكبير خارج البيت . وهو عند الطفل ثم الصبي ثم الشاب لا يعدون أن يكون الشارع الذي يسير أو يلعب فيه . وهو الصبيان والرفقاء الذين يساهمون أو يلعبون في المدرسة . وهو القهوة أو النادي . وهو رفقاء المدرسة وزملاء العمل . وهو الجريدة أو المجلة التي يقرأ . وهو الدين . وهو الثقافة العامة . فإن لكل هذا أثره في تكوين ميوله التي تتألف منها بعد ذلك شخصيته . ولكن كل هذه الأشياء لا توازن في القيمة أثر الأسرة .

ولذلك من العبث أن نطالب المدرسة بتعليم الأخلاق . إذ لا يمكن مدرسين الجغرافيا أن يتحدثوا عن قيمة الصدق والشرف . ثم هو لو تحدث لكان كلامه نظريا . ولكن البيت هو الذي يعلم الأطفال الصدق بالقدوة والمعاملة والتجربة . وقد يمكن المدرسة أن تساعد على إيجاد الأخلاق الفاضلة . بتأليف الفرق الرياضية أو التمثيلية . لأن الصبي هنا يدرك معنى التعاون ويمارس — وهذا هو الأهم — هذا التعاون . وذلك لأن سلوكه في فرقة الكرة أو فرقة التمثيل يتجه نحو نجاح الجماعة وليس نحو نجاحه الذاتي .

ولكن أثر العائلة لا يمكن أن يساويه أي أثر آخر . وصحيح إن هناك من استطاعوا أن يتجردوا من الآثار السيئة العائلية . ولكن قلائهم تجعلهم في مستوى البقريين الذين يخرجون عن حسابنا .